

الفصل الثاني

على حافة الإمبراطورية

«ليس لدي أدنى فكرة عن هوية الأشخاص الذين نقاتلهم»

- عضو في مجموعة المهمة الخاصة 11

في مكان ما على الحدود الفاصلة بين باكستان وأفغانستان، كان هدير المروحيات في حكم الموسيقى الخلفية لرقص رشيق متشابك للباليه الجوية الذي تؤديه الطائرات المروحية فوق رأسي. كان يوماً بارداً من أيام كانون الأول، وكانت طائرتان مروحيتان أمريكيتان من طراز هيوي تحومان حول ربوة تبعد مسافة 450 متراً إلى الشرق. اقتربت الطائرة مني كثيراً إلى الحد الذي تمكنت فيه من شم رائحة الغاز العادم المنبعث من محركاتها التوربينية ورؤية قناص يلبس خوذة ويقبض على بندقيته الآلية. كان رجع صدى الصوت القوي الثابت يتردد بين الجبال حين كانت إحدى الطائرات تستعد للهبوط وتتفحص المنطقة المحيطة وكأنها مترددة في الهبوط، في هذا المرتع الوخيم. في حين انقضت الطائرة الأخرى خلف التلال كصقر غاضب، باحثة عن مهاجمين محتملين.

ومن معقلي الصغير على قمة جرف شديد الانحدار، نظرت إلى الغور العريض المقابل لمدفعية بالية مضادة للطائرات موجهة نحو باكستان. ومنذ انتهاء مرحلة العمليات العسكرية الناشطة في أفغانستان، بدأ المتعهدون الأمنيون العاملون في الشركات الأمنية الخاصة بتمشيط هذه المنطقة، بالتعاون مع أفراد من الجيش الأمريكي ووكالة الاستخبارات المركزية بحثاً عن ابن لادن. وأنا أجلس على طرف الطريق المؤدي إلى قاعدة عسكرية أمريكية صغيرة غير مسماة، وغير محددة على أي خريطة رسمية، تعمل فيها وحدات تبدو كأنها وحدات قوات خاصة، إضافة إلى مرتزقة من الأفغان. وتوجه

الأسلحة المعبأة بالذخيرة نحو حدود دولة حليفة [باكستان]، أما العربات والحافلات في تلك القاعدة، فتركت محملة تحسباً للمغادرة على عجل. وعلى التلال المحيطة أقيمت نقاط مراقبة مشابهة من الهيسكوس- وهي صندوق رمادي طوله خمسة أقدام (1.52 متراً)، مملوء بالحجارة ومحوط بالأسلاك الشائكة. وعلى ظهر الهيسكوس وضعت أكياس من الرمال بطريقة عشوائية، وكومة من الذخيرة، وتضفي لفافة من الأسلاك المعدنية فضية اللون التي تستخدم في نصب الشراك، على ذلك المشهد مسحة من جنون الارتياح. ومن مسافة بعيدة، تبدو هذه القلاع التي أقيمت على عَجَل كأنها قلاعاً من عهد الصليبيين من العصور الوسطى، أما عن قرب فتبدو تحصينات غير منتظمة للحماية من الهجمات.

وباستخدام منظار مقرب في معاينة المنطقة، يمكنني مشاهدة التلال الممتدة والوديان السحيقة، وأشجار الصنوبر المتباعدة عن بعضها. ومن مسافة سحيقة أسفل منا، كانت شاحنات الجنفا ذات الألوان الزاهية، المحملة فوق طاقتها، تقعقع وتئن من وعورة الطريق وهي تنقل البضائع من باكستان إلى أفغانستان. وإلى يساري باتجاه باكستان، أشار الأفغان المضيفون إلى جبل قالوا: إنَّ القذائف التي تطلق عليهم في العادة تنطلق منه. وتتمتع الشرطة القبلية الباكستانية -رسمياً- بسلطة حفظ الأمن في المناطق القبلية الجبلية داخل الحدود الباكستانية، في حين يتولى الأمريكيون مهمة حفظ الأمن في الجانب الأفغاني. وإن لم يكن جهاز تحديد الموقع (جي بي أس) الذي معي مخطئاً، فإن هذا الموقع الأمريكي والمسلحين الأفغان العاملين فيه، هو داخل الأراضي الباكستانية بعمق خمسة أميال.

صاح الجندي الأفغاني الذي يعمل في هذه القاعدة الأمامية وكان يقف إلى جانبي متبسماً «رفاقك الأمريكيون!» مشيراً إلى الطائرة المروحية التي وصلت لتوها. كان هذا الجندي يرتدي الزي العسكري الأمريكي ويضع نظارة شمسية زرقاء اللون، وهو واحد من بين أربعين من الأفغان الذين استخدمهم الجيش الأمريكي لحراسة هذه القاعدة الأمامية براتب مرموق يبلغ 150 دولاراً في الشهر. وهم يسكنون في قلعة أثرية مشيدة من الطين على مقربة من التل المجاور، وكل ما يفتنونه من زينة وأثاث في هذا المنزل المتواضع هو

تقويم دعائي باكستاني، وصناديق الذخيرة وبعض الكراسي البلاستيكية الرخيصة، لكن هذا هو مسكنهم، وهم يفعلون كل ما بوسعهم لإكرامي والقيام بحسن ضيافتي.

يقول الجيش الأمريكي: إنَّ القواعد الرئيسية في خوست، وغارديز، وأورزغان، وأسدآذباد هي الجبهة الأمامية في الحرب على الإرهاب، غير أن وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية والجيش الأمريكي يعملان معاً في عدد من القواعد الأصغر حجماً قرب الحدود الباكستانية كهذه القاعدة التي زرتها، وهي قاعدة يفترض أن تبقى دون اسم، غير أن الناظر في وجوه هؤلاء الأفغان يشعر بأن هذه السرية لن تدوم طويلاً على أي حال. ويتركز جل اهتمام الإعلام في هذه المنطقة على بلدة سكن ذات الوقع الروسي على أذن من يجهل الجغرافية، وهي بلدة تقع إلى الجنوب من هنا. ومن عهد قريب، شهدت القلعة المشيدة من الطين في هذه البلدة مرور أكبر تجمع للصحافيين في أفغانستان، وتكون الزيارات المنظمة لهذه البلدة في العادة مصحوبة بعبارات مبتذلة وشعارات دعائية سينمائية، وصفها ضابط الاتصال الإعلامي في باغران بصوت بهيج بأنها «أشْرَّ مكان في العالم»، ووصفها قائد القاعدة العسكرية أمام مجموعة من المراسلين وعلى وجهه ملامح الجد «أنها شيء من ماد ماكس»¹ وحتى الثلاث مئة جندي أمريكي المتمركزين في سكن هم الآخرون يكررون الحديث عن «قلعة آباتشي»² أو «آلامو»³ أمام الصحافيين المتلهفين إلى المعلومات والإثارة. وربما أسرَّ لك بعض الصحافيين بأن الجنود في قاعدة سكن تلقوا تعليمات خطية من قادتهم بعدم التحدث عن العمليات التي تجري وراء الحدود الأفغانية، أو عن حجم القذائف المدفعية، أو

1- في إشارة إلى الفيلم الأسترالي ماد ماكس (ماكس المجنون) 1979، وهو من بطولة مل غيبسون الذي مثل دور ضابط الشرطة في منطقة نائية تنتشر فيها الجريمة. وهو يحاول حفظ الأمن على الطريق السريع في المناطق النائية من أستراليا، وتبع هذا الفيلم سلسلة من الأفلام عن هذا الشرطي الملقب ماد ماكس. منها ماد ماكس2؛ فارس الطريق السريع. 1981، وماد ماكس ما بعد العاصفة. 1985. (عن موسوعة إنكارتا بتصرف)

2- إشارة إلى فيلم الكابويي قلعة آباتشي (1948) من بطولة جون وين.

3- نسبة إلى قلعة آلاما في مدينة سانت أنتونيو بولاية تكساس، وهي القلعة التي شهدت أعمالاً وتضحيات بطولية في الحرب الأمريكية المكسيكية.

القنابل الذكية، أو العيارات النارية، التي تطلق باتجاه الحدود الباكستانية؛ وبذلك أحرز الجيش الأمريكي ببراعة فائقة هدفه في تنفيذ عملية سرية، تحت مسمع ومرأى الصحافيين الذين يزورون المنطقة، دون علمهم بهذه العملية.

وعلى الرغم من الإحصاءات الرسمية التي تقول: إن تسعة أعشار الخسائر في الأرواح في صفوف الجنود الأمريكيين تحدث في هذه المنطقة، إلا أن القلعة المبنية من الطين في مدينة شكن ربما تكون واحدة من أمن النقاط على الحدود مع باكستان. إن أكثر الهجمات التي نجم عنها قتل أو جرح جنود أمريكيين في هذه المنطقة كانت نتيجة كمانن تنصب خارج نطاق هذه القاعدة، ويصر الأمريكيون على أنهم يستنزفون قوة طالبان والقاعدة، ولكن العكس ربما يكون هو الصحيح. وما يحدث هو أن لغماً أرضياً بعيداً ينفجر ويصاب على إثره جندي أمريكي بجروح، ثم تأتي الطائرة المروحية لإنقاذه، ونظراً لسهولة إسقاط المروحيات، تصبح الطائرة هدفاً سهلاً لقوات المقاومة؛ وهذا الوضع يجبر الأمريكيين على حماية خطوط يصعب تأمينها، وهذا التحرش العرضي القصير الذي يهدف إلى استدراج مزيد من قوات الحماية إلى كمين كبير هو مثال تقليدي على التكتيكات التي استخدمها المجاهدون الأفغان في الثمانينيات. وعلى الرغم من أن هذه التكتيكات وثقت على نطاق واسع، وتدرس في كليات الحرب، فإنه يبدو أن إستراتيجية المجاهدين قد نسيها المجندون الجدد الذين يقاتلون على التخوم.

تطل القاعدة الأمامية التي وصلت إليها على سلسلة جبلية مشهورة بين مدينة ميرام شاه الباكستانية، وبين جارتها الأفغانية خوست. وكانت ميرام شاه قاعدة إمدادات ومحطة استراحة ونقاهاة للثوار المجاهدين الذين قاتلوا الاحتلال السوفييتي في الثمانينيات، ولا تزال مركزاً رئيساً للتهريب. ويعتقد الجيش الأمريكي، والحكومة الباكستانية، وغيرهم أن أسامة بن لادن مستخف في المناطق الجبلية لقبائل البشتون في مكان ما بين خوست ومدينة بيشاور الواقعة في شمال باكستان. وقد عمل ابن لادن هنا وقاتل إلى جانب المجاهدين في هذه المنطقة في الثمانينيات، ثم عاد إلى هذه المنطقة بعد

أن خرج من السودان أواخر التسعينيات، وليس من المستغرب أن تستمر الهجمات المنظمة على الأمريكيين والحكومة الأفغانية في أعلى معدلاتها في هذه المنطقة.

عدت إلى أفغانستان بعد سنتين كاملتين من بدء الحرب أواخر عام 2001. وفي أثناء هذه الزيارة، بدأت القوات الأمريكية بشن حملة أطلق عليها عملية التيهور، شارك فيها زهاء ألفي جندي ومئات من غارات الطائرات المروحية في محاولة عقيمة للقضاء على فلول طالبان وشبكة القاعدة في المناطق الحدودية حول خوست. فعمليات المقاومة الهامشية التقليدية لم تتوقف في هذه المنطقة منذ انتهاء المعارك الرئيسية، مع وجود جيوب لا يستهان بها تدعم طالبان، وجماعات التهريب، وزعماء الميليشيات المحلية، وهي عوامل تجعل من الاستقرار في هذه المنطقة من أفغانستان احتمالاً بعيداً المنال. ومع تحول التركيز بعد هجمات 11 أيلول/ سبتمبر إلى ابن لادن، فإن الأحداث الراهنة تغفل ذاكرة تاريخ الحروب المتواصلة في أفغانستان. لقد كانت هذه المنطقة هي الحافة التي وصلت إليها إمبراطورية الاسكندر المقدوني، والإمبراطورية البريطانية، ومن عهد قريب الروس. وكالموجة العالية المندفعة التي تختفي وتغوص في الرمال عند وصولها الشاطئ، واجهت الأفكار العظيمة والحملات العسكرية ثبات ومقاومة الشعب، والمكان، وفكرة أفغانستان. واليوم، يجد الأمريكيون أنفسهم في الواجهة المقابلة لخط دوران الحدودي، حيث بدؤوا من هناك بإنفاق الأموال وممارسة التأثير لقتال الروس قبل عقدين من الزمان.

وفي أثناء الحرب الروسية على أفغانستان، أوصى جهاز الاستخبارات الباكستاني بتقديم الدعم للطرف الأفغاني بالمال، والسلاح، والذخيرة، والتدريب، والنصائح العملية، وتوفير الملاذات الآمنة، مع الاحتفاظ في الوقت نفسه بسياسة ظاهرية بعدم التدخل، والقدرة على إنكار وقوع التدخل. وكان نموذج «الحرب بالإنابة» هو النموذج المفضل من الحرب العدوانية؛ لأن أي هجوم مباشر من قبل باكستان أو الأمريكيين، أو غيرهم، كان من المتوقع أن يلقي استككاراً عالمياً، وربما انتقاماً من السوفييت. غير

أن عزو المسؤولية عن العنف إلى الجماعات الجهادية المحلية من شأنه أن يعزز الفكرة القائلة بوجود حركة مقاومة ذات جذور شعبية تقاوم لدفع الظلم والعدوان.

قامت باكستان بإنشاء جيش غير نظامي تحت مسميات دينية، وقدمت الدعم لجماعات سياسية في بيشاور (...). ولتحقيق ذلك، أنشأت الاستخبارات الباكستانية وكالة أفغانية داخلية مختصة بإنشاء معسكرات للتدريب، ونقل الأسلحة والإمدادات من باكستان إلى الحدود، وضمان إيواء وإطعام آلاف المتطوعين، وكسوتهم، وتدريبهم، وتجهيزهم للجهاد دون أن يعكّر ذلك صفو العلاقات الدولية.

بعث العالم الإسلامي بشبابه الغاضب المتحمس المؤمن بالأفكار المثالية، الذين سرعان ما تشربوا الرغبة الدينية.. التي تجعل تحقيق الهدف الأسمى للإنسان عبر الشهادة والتضحية بالنفس. ولا يقتصر الجانب الأهم في عقيدة الجهاد على فكرة الموت بوصفه أعلى مراتب التضحية؛ بل يشمل فكرة أن الأمراء العظام يمكن أن يقاتلوا إلى جانب عامة الناس ووضعاء الفلاحين، وإذا لم يتمكن شخص ما من المشاركة في القتال، فإن دعم وتجهيز المقاتلين الوريثين هو في حكم المشاركة الفعلية ويكفي للوفاء بمتطلبات الجهاد الشرعية (...).

(...) اعتمدت إستراتيجية جهاز الاستخبارات الباكستانية في مواجهة السوفييت على الافتراض بأن خطة السوفييت تقوم على إنشاء سلسلة رئيسة من القواعد العسكرية في المواقع الإستراتيجية والطرق الموصلة بينها. وكما كان متوقفاً، فقد بقي السوفييت خارج المناطق الريفية جاعلين قاعدتهم المركزية في بگرام إلى الشمال من كابول. وقاموا كذلك بإنشاء نقاط محصنة، واجتهدوا في إرسال دوريات المراقبة لتقطع خطوط الإمداد ومنع المقاتلين من الدخول عبر الحدود الباكستانية. ونجح المجاهدون في محاصرة هذه النقاط العسكرية والاستيلاء عليها من وقت لآخر بعد رصدتها وتقدير قوة الجنود فيها، والذخائر والإمدادات الموجودة فيها، والوقت الذي يتطلبه وصول الدعم الجوي إليها. وكان المجاهدون حريصين على عدم التورط في خوض معارك تقليدية يمكن أن تلحق بهم خسائر فادحة، مكتفين بأسلوب الكر والفر والهجمات المباغته، وكسب الجولة الأولى

ثم الاختفاء في أماكن آمنة. واستخدموا بنجاح النموذج المؤسس على دروس الجنرال غياب في الهند الصينية- وهي التكتيكات نفسها التي هزمت الجيش الأمريكي في فيتنام عن طريق جره إلى حرب عصابات دموية. فالروس لم يهزموا بمعركة واحدة، بل جاءت هزيمتهم نتيجة حرب استنزاف طويلة الأمد، باهظة التكاليف، تقتصر إلى الدعم الشعبي داخل الاتحاد السوفييتي، فاضطرتهم إلى الانسحاب والتراجع خلف الحدود.

استخدم المجاهدون هذه التكتيكات في حربهم على الروس كما يستخدمونها اليوم في حربهم مع الأمريكيين. والتطور الحديث الذي طرأ على هذه الحرب هو هواتف الثريا التي تعمل بوساطة الأقمار الصناعية، وتفجير القنابل عن بعد (وتستخدم فيها عادة جهاز لاسلكي أو جهاز تشغيل سيارة من بعد). وتعود نشأة نظام المقاومة القائم اليوم إلى الدعم المالي الذي قدم أيام الجهاد ضد السوفييت، غير أن قنوات التمويل، والتدريب، واللاعبين، والتكتيكات موجهة الآن نحو طرد ومضايقه الجيش الأمريكي، وأوجه التشابه بين الحاليين لافتة للنظر: فاليوم، تقوم السياسة الأمريكية على دعم حكومة صديقة وتعمل على تدريب جيش محلي (كما كان يفعل الروس)، وتجنب المواجهة الحادة على الأرض (كما كان يفعل الروس)، مؤثرة الطيران من القواعد العسكرية الرئيسية والبقاء داخل معسكرات محصنة (كما كان يفعل الروس)، غير أن الفارق الجوهرى في الوقت الحاضر هو الأعداد الكبيرة للمنظمات غير الحكومية التي تقوم بتنفيذ الأجنحة الغربية، وإهمال النظام التعليمي، واستخدام المتعاقدين الأمنيين من القطاع الخاص، وانعدام التدفق السري الهائل للأموال الأجنبية لدعم إخراج «المحتل» الأجنبي من أفغانستان، والغياب المتعمد لأسماء الجماعات التي تهاجم الغربيين وأتباعهم من المرتزقة. وينظر الأمريكيون إلى وجودهم في أفغانستان بوصفه نصراً على الإرهاب، في حين يرى جنود المقاومة في مشاغلة الأمريكيين واستنزاف مواردهم نصراً لهم. ويمكن لأي أفغاني أن يقول لك، كم استغرقنا من الوقت لهزيمة البريطانيين؟ وكم استغرقنا من الوقت لإخراج الروس وهم يجرون أذيال الهزيمة؟ وبالمثل، فإن الحرب على الاحتلال الأمريكي لأفغانستان يمكن أن تصبح ثأراً يمتد عبر الأجيال.

استكملت الدعاية الإعلامية للجهاد عناصرها الأساسية في أثناء الحرب على الاتحاد السوفييتي (...). وفي اعتقاد الأفغان، كانت تلك الحرب مثلاً آخر يدعم مقولة أن أفغانستان هي دوماً مقبرة لكل معتدٍ أجنبي، وإن قدّم معتدون أجانب المال والسلاح لهزيمة معتدٍ أجنبي آخر. ويتذكر أكثر الرجال الأفغان من بين سن الثلاثين إلى الستين قصصاً درامية عن مصارع الروس، وإسقاط مروحياتهم، وحرق قوافل جنودهم، والهجمات المضادة العنيفة التي ألحقوها بهم. ويتحدث كل أفغاني عن الجهاد بفخر واعتزاز، وقدمت لهم تجربة الجهاد نبعاً غزيراً من المشاعر الوطنية، ولكنهم يتناسون عن قصد قيام المقاتلين الريانيين في منتصف التسعينيات وبعد خروج الروس، بتدمير كابول، وارتكاب المذابح. وما زال كثير من هذه الجماعات الأصولية يقدم الدعم للجهاد ضد الأمريكيين اليوم في أفغانستان. ولم ينس أكثر السكان المحليين إسهامات ابن لادن وجهاده في تلك الحرب.

ولا تزال المنطقة المسماة «منقار الببغاء»، وهي منطقة باكستانية تمتد داخل أفغانستان أسفل تورا بورا وفوق خوست، تمثل نقطة الضعف في العمليات الأمريكية. وكانت خوست، ولا تزال، بقلاعها الجبلية في زهوارخيلي، مركزاً تقليدياً للمقاومة؛ وما زالت مدينة ميرام شاه التي تقع قبالتها، ملاذاً آمناً للقوات المنسحبة بعد تنفيذ الهجمات. وفي ثمانينيات القرن الماضي، كانت مدينة ميرام شاه نقطة العبور لعشرين في المئة من احتياجات المجاهدين للسلاح. وهي اليوم تمثل أسرع طريق إلى كابول وأسهل مكان لشن هجوم على الأمريكيين والعودة بأمان عبر الحدود. وقد تعرض عدد من المراكز الحدودية لهجمات مكثفة جنوب خوست مراراً وتكراراً. وتعد المدينتان الباكستانيتان: وانا وأنغور آدا أهم نقطتين لانطلاق الهجمات التي تستهدف القاعدة الأمريكية في شكن، إلى الجنوب من مقاطعة بكتيكا.

يعد السفر من داخل أفغانستان إلى باكستان فيما يخص الرعايا الغربيين أمراً سهلاً وميسوراً؛ أما السفر إلى الحدود الأفغانية من داخل باكستان فإنه يقارب حدود المستحيل.

ويتولى فرض اللافتة المشهورة في المناطق القبلية التي تقول: «يُمنع دخول الأجانب» جنود باكستانيون، طوال القامة، نحال الجسم، يلبسون سترًا صوفية بنية اللون وأحذية رخيصة. وتعد هذه المنطقة الحدودية بين باكستان وأفغانستان في نظر المجتمع الدولي مناطقَ قبلية. غير أن رسامي الخرائط تعمدوا التضييل. فالمناطق القبلية لا تخضع كلها لفكرة «باكستان» بل ترى نفسها مركزاً للأمم مستقلة تدعى باشتونستان، وهي كيان شطر إلى نصفين في عهد الاستعمار الإنجليزي بالخط الحدودي المسمى خط دوران.

يمر خط دوران فوق قمم سلسلة من الجبال، وهو خط وهمي متعرج وضع في الأصل للفصل بين الهند وأفغانستان. وقام ضابط بريطاني اسمه السير مورتمير دوران برسم الخط الحدودي الذي يبلغ طوله 1519 ميلاً ليفصل بين الهند وأفغانستان تنفيذاً للاتفاق الذي أبرم مع أمير عبد الرحمن خان في 12 تشرين الثاني/ نوفمبر من عام 1893. وفي ذلك الوقت، عارض البشتون الذين يقطنون المنطقة تنفيذ هذا التقسيم، ومنذ ذلك الوقت كان يجري، قدر الإمكان، تجاهل هذا الخط الحدودي غير المحمي، وغير المحدد بوضوح.

كانت الحكومة الباكستانية، ولا تزال، تجد صعوبة في كسب ولاء المناطق القبلية لها. ويعترف قادة باكستان منذ تأسيس الدولة أنهم يواجهون وضعاً قابلاً للتفجر في تلك المنطقة. ومع أن البشتون يشكلون ما نسبته 12% من سكان باكستان، إلا أنهم يسيطرون على 40% من أراضيها. ولو قدر لقبائل البشتون في الطرف الباكستاني الاتحاد مع أبناء جلدتهم في أفغانستان (الذين يقدر تعدادهم بنصف سكان أفغانستان) في كيان مستقل، لتحولت باكستان إلى دولة صغيرة، أكثر سكانها من البنجاب، تكون هدفاً سهلاً لعدوان هندي. من أجل ذلك تهتم باكستان بالشأن الأفغاني وتأثيرها فيه أيما اهتمام.

قدم الجهاد ضد الروس فرصة مثالية لتعزيز المثل الدينية العالمية على حساب التطلعات البشتونية القبلية. واليوم تعمل باكستان بحذر في هذه المنطقة عن طريق استخدام جنود يجري تجنيدهم من المناطق القبلية، ولا تتدخل بالشؤون المحلية إلا بموافقة زعماء القبائل.

جهزت نفسي للانطلاق من خوست في رحلة تستغرق يوماً إلى المنطقة الحدودية، وذلك على الرغم من مناشدة الحكام الإداريين لي، في كل من غارديز وخوست، بتجنب الذهاب إلى هناك، وكان يرافقتني دليل محلي من أقارب أحد الزعماء الأفغان في المنطقة. ذهبت في هذه الرحلة؛ كي أشاهد بنفسي كيف تسير عملية مطاردة ابن لادن، ولكي ألاحق المتعاقدين الأمنيين الأمريكيين المتملصين الذين يقال: إنهم يشاركون في هذه العملية، غير أن هذه الرحلة «المحفوفة بالمخاطر» كانت مخيبة للآمال بعض الشيء حين لم أقابل بالريبة والشك؛ بل بالكرم وحسن الضيافة. وحين وصلنا إلى آخر نقطة تقتيش أفغانية، لم يطلب حرس الحدود منا إبراز جوازات سفرنا، ولم يفتشوا سيارتنا، ولكنهم أصروا على أن ننزل ونشرب معهم الشاي. لماذا لم يشكوا فينا؟ كانت إجابتهم مفاجئة لي: «لو أراد أحد أن يتسلل إلى هنا، فإن بإمكانه أن يستخدم العدد الكبير من نقاط العبور غير المحروسة». ثم اكتشفت في تلك اللحظة أن توهم وجود حدود تفصل بين أفغانستان وباكستان، يعادل توهم الأمريكيين بالسيطرة عليها.

لا توجد أي علامة أو إشارة تميز أفغانستان عن باكستان على الحدود الحقيقية التي تفصل بين البلدين، ولا توجد حدود يمكن تمييزها بالمعنى الحرفي للكلمة. وبحسب معطيات جهاز تحديد الموقع عن طريق الأقمار الصناعية الذي كان معي، فإن المكان المفترض فيه أن يكون حداً بين الدولتين، لم أر فيه سوى امتداد منفسح مغطى بتلال ذات أشجار خفيضة. ويوجد في المكان بعض المحال التي تباع الشاي، وبعض الصناديق الخشبية الصغيرة التي يمكن عدها متاجر صغيرة لبيع الحاجيات الضرورية، وتجمعات من الأفغان المتربعين في جلستهم المعتادة على الأرض يتبادلون أطراف الحديث. ويقف سائقو سيارات الأجرة في انتظار الزبائن، وينتظر الأصدقاء وصول أصدقائهم. ويمضي الأقارب وقتهم في الحديث والضحك.

وإلى الجهة الغربية من الوادي، رأيت مجموعة صغيرة من الباكستانيين يلبسون القميص والسترة والسراويل، وخلفهم مجموعة متنوعة من الباصات الصغيرة البيضاء والسيارات. وقيل لي: إنه لا يسمح للناس بالدخول إلى باكستان بسياراتهم؛ بل عليهم

أن يستأجروا سيارة تكسي باكستانية مرخصة. وتوقفت الباصات من الشمال والجنوب خلف سحب من الغبار الأبيض؛ ونزلت الأسر لتسير تجاهنا دون أن يتعرض لهم الجنود الباكستانيون بسؤال أو متابعة. أثار عدم اهتمامهم بالناس الذين يعبرون الحدود من إلى أفغانستان فضولي، فمشيت نحو ثلة من الجنود الباكستانيين؛ كي أسألهم عن السبب.

افترضت أن الجندي الذي يمسك العصا المخططة هو الشخص المسؤول عنهم، وكنت محقاً في ظني. سألته إن كان هناك عناصرٌ من طالبان أو من الأجانب يعبرون الحدود لمهاجمة الأمريكيين في أفغانستان. فرد بنبرة المتيقن «هذا غير صحيح، الأفغان يكذبون». وكان حولي قرابة عشرين أفغانياً ينتظرون وصول سيارات الأجرة أو ربما يراقبون التدفق المستمر للناس ذهاباً وعودة. ويقع على رأس الراية المشرفة على الوادي في الطرف الباكستاني حصن يعلوه هوائي جهاز اتصال لاسلكي. رأيت الباكستانيين وأنا أصور بكاميرا الفيديو فقالوا لي: إن التصوير ممنوع في المنطقة، فرجعت إلى الورا بضعة أمتار عبر أخدود منخفض إلى منطقة حسبته تقع في أفغانستان وتابعت التصوير.

صورت الحافلة تلو الحافلة وهي تفرغ حمولتها من الركاب ومجموعات الرجال وهم يدخلون إلى باكستان دون سؤال أو استفسار. وبدا أنه لا أحد من حرس الحدود الباكستانيين يكلف نفسه مشقة السؤال عن هوية شخصية، أو وثيقة سفر. وعدت أسائل نفسي عن مدى صدق الجندي الباكستاني ذي العصا المخططة في ادعائه بعدم وجود مقاتلين يعبرون الحدود الباكستانية لمهاجمة الأمريكيين في الجانب الأفغاني. وفيما بعد، وحين تناولت الشاي مع مجموعة من الأفغان أسفل تلك التلال، قالوا لي: إن العرب والباكستانيين ينقلون الأسلحة ليلاً على ظهور الحمير عبر التلال القريبة من هنا. ويبدو أن الجنود الباكستانيين موجودون هنا بصفة رمزية وأن سبب وجودهم هو لرفع مستوى مرتباتهم المتدنية. وينتمي ولاؤهم الأسمى إلى زعماء القبائل في المدن داخل الحدود، وليس إلى حكومة مشرف المركزية. وينبع قرار السماح بحركة الناس عبر الحدود من سلطة أعلى من سلطتهم كثيراً.

عدت في اليوم اللاحق إلى خوست، وأوقفت شاباً أفغانياً يحمل في يده هاتفاً نقلاً من نوع ثريا، وقلت له: إنني أرغب بلقاء الأمريكيين في هذه المنطقة، علماً بأنني حين سألت هذا الشخص قبل عدة أيام عن زيارة المنطقة الحدودية، نصحتني بعدم الذهاب بسبب الأخطار المحيطة بالمنطقة. واليوم ها هو ينصحتني بالذهاب لرؤية أصدقائي الأمريكيين. والفرق هو الحافز المالي. وهذا كل ما يمكن قوله عن سرية الاستحکامات التي يدعمها الجيش الأمريكي في المنطقة؛ لأنني اكتشفت للتو سرّاً تحديد مواقعها، وهو أن تسأل أي شخص من السكان المحليين يجيد اللغة الإنجليزية ويحمل بيده هاتفاً نقلاً يعمل عن طريق الأقمار الصناعية تبلغ قيمته 800 دولار أمريكي. وفي رحلة قصيرة بسيارة أجرة، وصلت إلى نقطة الاستحکام الجرداء فوق هضبة مطلة على وادٍ يؤدي إلى ميرام شاه باتجاه خوست.

وعلى الطريق المؤدي إلى القاعدة على قمة الهضبة، كانت هناك عربتان مصفحتان من طراز همفي، وحافلة نقل صغيرة ذات لون بني فاتح تعلوها لوحة برتقالية، وسيارة من نوع لاند روفر مموهة باللونين البني والأخضر، ويتبعها جميعاً قافلة من حافلات نقل صغيرة من نوع تويوتا مملوءة بالجنود الأفغان المسلحين الذين يشيرون مستعرضين أسلحتهم الكثيفة وقفازاتهم الجديدة ونظاراتهم الشمسية. وبينما أنا واقف أراقب هذه القافلة المكونة من سبع حافلات وهي متجهة إلى نحو مدرج هبوط الطائرات المروحية أعلى الهضبة المجاورة، كنت أفكر بوسيلة أبدأ بها الاتصال. قفزت أسفل الدرج المصنوع من أكياس الرمل كي أتحدث إلى القائد الملتحي شاه آدم. وبلغة بشتونية مكسرة، أشرت بيدي إلى الطائرات المروحية التي كانت تحلق في سماء المنطقة وقلت «أصدقاء». أركبني آدم في حافلة تويوتا كانت تابعة لحركة طالبان في السابق، وسرت برفقة الأفغان في رحلة ملتوية من القاعدة الموجودة على قمة الهضبة إلى مدرج هبوط الطائرات المروحية على قمة الهضبة المجاورة. وبين هذين التلّين شاهدت مزيداً من الجنود الأفغان الذين يعملون لحساب الأمريكيين يقومون بملء أكياس الرمال لبناء قاعدة استحکام أخرى أقرب إلى باكستان. وكما هو متوقع، أقيمت هذه القواعد في مواجهة باكستان، وبدت بوضوح الحقيقة المؤلمة أن العدو - وكما ذكر لي أحمد شاه مسعود مراراً وتكراراً - هو باكستان.

لما وصلنا إلى مدرج الهبوط، غادرت طائرتا هيوز تاركتين مجموعة من كبار الضباط يلبس كلُّ منهم سترة واقية من الرصاص ويحمل على جنبه مسدساً. وتبدو قصة شعرهم الفضّي حديثة العهد، وخوذاتهم اللامعة، وبزتهم العسكرية الأنيقة على النقيض من الحال الرثة لحراسهم الشخصيين من القوات الخاصة. ركب الضباط في عربات القافلة التي استدارت وتوجهت في طريقها إلى القاعدة الموجودة على قمة الهضبة.

ويبدو أن الأشخاص الذين بقوا لحراسة مدرج الهبوط هم من وحدة المهمات الحربية الخاصة - وهي واحدة من بين مجموعة من المجموعات النخبوية المكونة من أفراد من القوات الخاصة، وقوات الدلتا، وقوات سيل، والقوات شبه العسكرية التابعة لوكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية، بالإضافة إلى المتعاقدين الأمنيين الموكول إليهم مهمة تعقب الأهداف ذات القيمة العالية. ويبدو أن هذه المجموعة مكونة من جنود تابعين لمجموعة القوات الخاصة العشرين، وهي وحدة من قوات الاحتياط أرسلت من ولاية الألاباما، وفيها جندي شاب من سلاح الجو يتولى مهمة تنسيق الدعم الجوي، وشخص أمريكي آخر يلبس ثياباً مدنية - بنطالاً حنطلي اللون، وسترة مصورين، وخذاء لتسلق الجبال، وكان يلبس نظارة شمسية من نوع أوكالي، ويقبض بيديه على بندقية إي كي-47 (كلاشنكوف) وهي سلاح غريب لشخص أمريكي، حتى في هذه المنطقة المشجرة النائية. وفي أثناء حديثي معه، أكد هذا المتعاقد شكوكي - وهي أنني رأيت للتو وحدة المهمات الخاصة-11 لكنه في هذه اللحظة استدار ومشى إلى الجهة الأخرى حين اقتربت من المجموعة.

تزعم الحكومة الأمريكية أن هذه المجموعة التي أنظر إليها الآن غير موجودة، وهي لا تكتفي بنفي أن هناك عمليات تجري داخل الحدود الباكستانية وحسب، بل إن وحدة المهمة الخاصة 11 قد حلت ولم يعد لها وجود، وكذلك حال وحدة المهمة الخاصة 5، ووحدة المهمة الخاصة 20. وفي شهر يوليو من عام 2003، صدر عن القيادة المركزية الأمريكية بيان قالت فيه: إنها حلت وحدة المهمة الخاصة 11، واصفة إياها أنها «مجموعة مكونة

من نخبة من قوات الدلتا، وقوات سيل لتعقب قيادات طالبان والقاعدة في أفغانستان وما حولها» وشكلت وحدة المهمة الخاصة 20، التي نقلت إلى العراق لتعقب صدام حسين وكبار قيادات حزب البعث والقبض عليهم. وفي تشرين الثاني/نوفمبر من عام 2003، قام الجنرال جون أبي زيد بحل وحدة المهمة الخاصة 5، ووحدة المهمة الخاصة 20، اللتين تعملان في أفغانستان والعراق على الترتيب، وشُكِّلَ بدلاً منهما وحدة المهمة الخاصة 121. وهذه الوحدة بحسب ما وصفها الجيش الأمريكي بأنها وحدة جديدة عالمية مصممة للرد بطريقة أسرع والتعامل مع الأهداف ذات القيمة العالية تأسيساً على ما يصلها من معلومات، وأنها ليست مقيدة للعمل ضمن الحدود التي تعمل فيها القوات التقليدية للجيش الأمريكي، وهذه المجموعة وما تقوم بها من عمليات مصنفة ضمن أعلى مستويات السرية والاضطرار في البنتاغون، ويتولى قيادة هذه الوحدة ضابط من سلاح الجو برتبة عميد، وتبقى جميع العمليات والمعلومات المتصلة بها في نطاق السرية، ويرفض البنتاغون مناقشة أي نشاطات لها ارتباط بهذه المجموعة - ولا سيما قواعد الاشتباك، وحاجة هذه الوحدة إلى الحصول على تصريح من الحكومات الأجنبية للسماح لها بالعمل في أراضيها.

تتألف هذه الوحدات الخاصة «في المقام الأول»، بحسب ما جاء في الوصف الرسمي لها، من مجندين من قوات الدلتا وقوات سيل، تدعمها كتيبة العمليات الجوية الخاصة 160، ومطلوب منها تعقب وقتل العناصر المهمة من طالبان والقاعدة «في أفغانستان وما حولها». واستخدمت عبارة «في المقام الأول» قناعاً يخفي تحته من يسميهم الجيش عناصر الوكالات الحكومية الأخرى في وحدة المهمة الخاصة، وتفيد عبارة «حول» أفغانستان أنهم يعملون عبر الحدود بعد صدور موافقة رسمية بموجب قواعد «المطاردة الحثيثة» أو «تحت إطلاق النار». وحين سئل القادة العسكريون في المؤتمرات الصحفية عن يتعقب أسامة بن لادن وقائد طالبان الملا محمد عمر، كانت إجابتهم: أن ثمة أشخاص آخرون يتولون هذه المهمة، وأن الحقيقة تقبع في أعماق الجهاز الأمني الأمريكي.

بعد أن أقلعت الطائرات المروحية، وتوجهت القافلة بكبار الضباط إلى القاعدة العسكرية لحضور اجتماعهم، مكثت أنا للتحدث إلى «الأشخاص الآخرين» أنفسهم. والغريب في الأمر أن الجيش الأميركي يقول: إنه ليس ناشطاً في البحث عن أسامة بن لادن، مع أنني أقف وأمامي أفراد الجيش الذين يبحثون عن ابن لادن. إن السرية التي تحيط بهذه الوحدة العسكرية وخضوعها المباشر لوكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية يتطلب من الجيش أن ينكر وينفي أي نشاط تقوم به. وعليه فإن الأشخاص الذين أنظر إليهم هم غير موجودين من الناحية الرسمية.

توجهت إليهم، وحاولت بكل جهدي أن أتصرف وكأنني غير مكترث وأنا أتحدث إلى الجنود الأميركيين غير الموجودين من الناحية الحكيمة الذين يتولون حراسة مهبط الطائرات. استمع القائد الملتحي ذو البشرة السمراء من فريق القوات الخاصة إليّ بتمعن وأنا أقدم له موجزاً عن سيرتي وطبيعة عملي، وتقحصني بعينيه من رأسي إلى أخمص قدمي، وقال، «نعم، سنتحدث إليك... لكن عليك أن تنتظر حتى يغادر القادة الكبار أبناء الفاعلة وسوف نأتي إليك ونتحدث كما تشاء». وفهمت من كلامه أنه يريد مني أن أبقى بعيداً حتى يعود وفد كبار القادة من حيث أتوا؛ لذلك رجعت لأجلس إلى جانب التل مع اثنين من أعضاء الفريق حتى تنتهي زيارة القادة الكبار لهذه القاعدة النائية.

ولما جلسنا، قال أحدهما وهو جندي برتبة رقيب من القوات الخاصة، بنبرة متهكمة: «مرحباً بك في الحرب التي نسيتهَا أمريكا»، كان رجلاً بديناً، ويضع سماعة كبيرة أحادية في أذنه، ويلبس زياً عسكرياً حنطي اللون. وعلى خلاف بقية أعضاء الفريق لم يكن هذا الجندي يطلق لحيته، وكان متلهفاً للتحدث فوراً، كان في العراق قبل تسعة أشهر، ثم أرسل مباشرة إلى أفغانستان في مهمة مدتها ستة أشهر، ثم صاح متذمراً: «تباً لنظام إجازة اليومين عن كل شهر!». وهو من قوات الاحتياط التابعة لمجموعة القوات الخاصة العشرين وينحدر من ولاية آلاباما. ويبدو أن الطبيعة لم تتغير عليه كثيراً؛ حيث قال: «تذكرني المناطق الريفية هنا بمنطقة جنوب ولاية يوتا».

ما عرفت منه فوراً أن المناطق الحدودية تشهد عودة قوية للعدو؛ إذ يتعرض الأمريكيون والأفغان للهجمات والمصائد على نحو منتظم. وتخلت الولايات المتحدة قبل مدة عن واحدة من نقاط الاستحكام الحدودية من بين أربع بالقرب من لوهارا. وتعرض البقية لهجمات متزايدة وتتبدل السيطرة عليها من وقت لآخر بين أيدي الأفغان، وطالبان، والقاعدة، والباكستانيين، والأمريكيين. تأتي الهجمات من جهة الطرف الباكستاني من الحدود وتحدث في أثناء الليل، ويبدأ الهجوم عادة بالصواريخ، ثم بالقذائف المدفعية، ثم تتبع بهجوم ثلاثي: المجموعة الأولى تنتظر التقدم، والثانية تطلق النيران، والثالثة تتقدم لإعادة الكرة. وفي العادة يستولي المهاجمون الغامضون على القاعدة العسكرية من الجنود الأفغان عدة ساعات، ثم يتخلّون عنها فارين بعد أن يصل الدعم الجوي الأمريكي.

ويبدو أن الرقيب مرتبك بعض الشيء من الهجمات التي عادت إلى المنطقة. وقال لي، وهو يعدل قبعة البيسبول التي يلبسها (...) «لقد تعرضنا لهجوم عنيف قبل أسبوعين... حصل ستة أشخاص من وحدتنا على أوسمة القلب الأرجواني، كان المهاجمون في انتظارنا، وكانوا يعرفون مكاننا بدقة... وكان الباكستانيون يراقبون كل شيء ولكنهم لم يحركوا ساكناً».

وأشار بإصبعه إلى نقطة تبعد مسافة ميل أو أكثر قائلاً: «أطلقت الصواريخ من تلك الهضبة من الطرف الباكستاني. إننا نجتمع بالمسؤولين الباكستانيين كل شهر عند الحدود.... يتبسمون في وجوهنا، ونحن نتبسم في وجوههم، ويحدثوننا بحديث هُراء، ونحن نحدثهم بحديث هُراء، ثم بعد ذلك يشاهدوننا نتعرض للهجوم ولا يفعلون شيئاً. إن هذا المكان مرتع الهلكة». سألته إن كان المهاجمون هم من طالبان، أم من الباكستانيين، أم من العرب؟ فحرق بعينين نصف مغمضتين وهو ينظر إلى الشمس، ولإضفاء تأثير على ما سيقول، بصق وقال معترفاً: «ليس لدي أدنى فكرة عن هوية الأشخاص الذين نقاتلهم».

بعد أن استرحت ساعتين قرب مدرج هبوط الطائرات المروحية منتظراً رحيل كبار الضباط، لقيت مرة أخرى الشخص الأمريكي الذي يحمل بندقية إي كي 47 - وهو المتعاقد الأمني، فبدأني الحديث دون تحية، لكن بتحذير: «إنهم لن يسمحو لك بالعبور إلى باكستان... ولا تستغرب إذا طردك القائد الأفغاني». سألته إلى من يعود الضمير في قولك «إنهم»؟.

فرد بإجابة مختصرة «ت. إف»، وهي الاختصار الإنجليزي لعبارة وحدة المهمات الخاصة.

وواضح أن ما قمت به من تصوير في المنطقة لم يرق لهم. «لقد قمت بتصوير قاعدتهم وعرباتهم، ولو احتجرك الأشرار خلف الحدود، فسوف يستخدمونها لمهاجمة هذا المكان».

وكان يبدو عليه الفضول لمعرفة كيف تمكنت من الوصول إلى هذا المكان دون أن أتعرض لأي هجوم. «هل رأيت الهوائيات البارزة على الزوايا الأربع لتلك الحافلة؟ هذه أجهزة تشويش إلكتروني. يقوم الناس هنا بدفن الأنغام المضادة للدبابات، انتظاراً لفرصة سانحة لتفجيرها بوساطة جهاز خلوي أو جهاز تشغيل السيارة من بُعد. إنهم يستأجرون أولاداً صغاراً للجلوس على جانب الشارع لإخبارهم عند وصول الأمريكيين. لقد حاولوا قتل مشرف بالأمس، وكان نظام التشويش الإلكتروني هو الشيء الوحيد الذي أنقذ حياته. وتتساءل قوات الدلتا كيف وصلت إلى هنا دون التعرض للأذى؟ وأنا متيقن من أنهم يبحثون عنك الآن». ثم ابتسم، وعاد أدراجه من حيث أتى.

توجهت بعدها إلى نقطة الاستحكام، فسارع القائد الأفغاني شاه علم الذي كان قبلها بيدي لي التودد، إلى ملاقاتي متبرماً قائلاً بنبرة تتم عن شعور بالهلع: «لقد أتيت إلى هنا لالتقاط الصور،... لقد التقطت ما يكفيك من الصور، فاذهب الآن ولا تلو». وواضح أنه تلقى أوامر لإخراجه من هذه الهضبة ودفعي إلى الاتجاه المعاكس نحو ميرام شاه. وجرياً مع التقاليد المعهودة لدى الأفغان، طلب مني مشاركتهم في تناول الغداء قبل أن أغادر.

جاء المتعاقد الأمني وأنا أجهز حقيبتي للمغادرة، وسألني عن الجهة التي سأقصدتها، فقلت له: إنني أقيم في منزل رجل يدعى حجّي بالقرب من غارديز، قابلته قبل أسبوع في جمع ضم شيوخ القبائل في المنطقة. نال حجّي شهرته حين كان قائداً لمجموعة من المجاهدين، وكان يعمل قبل ذلك في الشحن عبر الحدود، وتهريب المخدرات، وكان من مؤيدي طالبان حين كانت شهرتهم نابغة من سحقهم لزعماء الحرب لا من دعمهم للقاعدة. وهو الآن متقاعد، ولكنه يبقى رجلاً يلجأ إليه لحل المشكلات ومساعدة الضعفاء. ودون أي تردد، دعاني إلى النزول ضيفاً في بيته مدة أسبوع بشرط ألا أكشف عن مكانه أو عن اسمه الكامل. ولما لم يكن لدي خوف من استنزاف الكرم غير المتناهي لهذا الرجل المسن، دعوت المتعاقد الأمني إلى مرافقتي إلى منزل حجّي.

كان واضحاً أن فكرة الولوج إلى المناطق الخاضعة لسيطرة طالبان بمرافقة شخص غريب أثارت فضوله، وكان من المفترض أن يعود هذا المتعاقد إلى خوست لقضاء مدة للراحة والاستجمام؛ لذلك كان لفكرة الذهاب بسيارة أجرة بدلاً من قافلة تابعة للوكالات الحكومية الأخرى جاذبية غريبة. ذهب وأحضر حقيبته المهترئة وألقاها في سيارة الأجرة الأثرية ذات اللونين الأصفر والأبيض، ثم انطلقنا في رحلتنا، ولكنني أصررت على التوقف في سوق صغير تبعد أميالاً عدة عن القاعدة لشراء بعض الملابس الأفغانية. وبستين دولاراً فقط، تحوّل صديقي المتعاقد الأمني إلى فلاح أفغاني ملتج بزيه الكامل، من القبعة الصوفية، إلى القميص الأفغاني الطويل، والسرويل الأزرق الفاتح. وبعد أن ارتدينا تلك الملابس، كان مظهرنا يوحي بأننا أحمقان -أحمقان أفغانيان- ثم تابعنا المسير.

على الرغم مما صدر عن صديقنا المتعاقد من زمجرة ووعيد في بداية اللقاء، إلا أنه غير معتاد على أن يكون مكشوفاً بهذه الطريقة أمام الملاء. وحين كنا نقرب من نقاط التفتيش، كان لا يكف عن تذكيري بكيفية إخلاء السيارة من الجانب، وكيفية الاحتفاظ بالمسدس تحت رجلي، وكيف يمكن لزجاج السيارة أن يصد الرصاص القادم إلينا. وحين

اقتربنا من سلسلة من المنعطفات الحادة التي تعد علامة بداية صعودنا إلى المناطق الجبلية، بدأت علامات الارتياح تظهر على صديقنا المتعاقد، وكان لدينا كثيراً من الوقت للتحدث في أثناء الرحلة. وفيما كانت السيارة تهتز وتضطرب في حركتها بسبب الطريق غير المعبد ذي الحفر، قبل المتعاقد أن يجيب على عدد من الأسئلة حول عمله بشرط عدم الكشف عن أي شيء يمكن أن يلحق ضرراً بمهمته، وألا أذكر اسمه ولا الوحدة التي ينتمي إليها. فقبلت بالشروط. أشارت قصته إعجابي، وأنا أطبع ما يقوله على جهاز حاسوب الجيب الذي كان معي.

إن ما نتظر إليه هو جزء من وحدة المهمات الخاصة 11، ويطلق عليها كذلك اسم وحدة العمليات الخاصة المشتركة، وفيها بعض القادة الكبار وبعض الأقرام والجنود العاديين، غير أن الفريق فيه بعض القناصة، وهؤلاء في العادة ثلاثة أو أربعة من قوات الدلتا، وفريق آخر مكون من اثني عشر عنصراً من القوات الخاصة، وضابط من سلاح الجو لتنسيق عمليات الإسناد الجوي، وضابط استخبارات، وعناصر من الوكالات الحكومية الأخرى، وقراية ثلاثين أو أربعين من العملاء الأفغان. وهؤلاء هم رأس الحربة هنا، وهم القناصة القتلة في الأدغال.

أما أنا، فأعمل بصفة متعاقد أمني، وقد دأبت وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية على استخدام متعاقدين أمنيين مدنيين منذ عقود، وهم أشخاص لا ينتمون بصفة رسمية إلى الجيش، ولا إلى الحكومة، ولا إلى الاستخبارات، ولقد كانت بداية استخدامهم في فيتنام، حيث كانت الوكالة بحاجة إلى عملاء يمكن إنكار العلاقة بهم: أشخاص تستطيع الحكومة الأمريكية في حالة القبض عليهم أن تقول: إنهم لا يمتون إليها بصلة. وهذه الأيام تملك الوكالة الكثير من المال؛ لذلك فإن من الأسر لها أن تتعاقد معنا بدلاً من أن تتولى تدريب أشخاص جدد. وهناك نوعان من الجنود: جنود مرتزقة، تتدلى كروشهم بفعل شرب البيرة، غلاظ فظاظ، يلبسون الخواتم. وهؤلاء تشاهدهم في المدينة. أما الصنف الثاني فهو نحن، ونحن أشخاص نجب المحافظة على لياقتنا البدنية، أعمارنا تتراوح ما بين أواخر العشرينيات إلى أواخر الأربعينيات. كما أن هناك أشخاصاً يعملون من

الداخل وأشخاصاً يعملون من الخارج، وأشخاصاً من الداخل لا يمكنهم أن يعترفوا لك بأنهم يعملون مع وكالة الاستخبارات المركزية؛ أما أشخاص الخارج فهم الذين يعزلون من الوظيفة لسبب أو لآخر. وحدث أن أخرج شخص من الخدمة؛ لأن الوكالة أرسلت إليه نموذج ضريبة الدخل وكتب في الفراغ المقابل لكلمة «رب العمل»: وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية.

أكثر العملاء الذين يعملون مع الوكالة يقومون بعملهم تحت «غطاء مموه»، فهم يعملون بصفة مدنية أو عسكرية قابلة للتصديق ولكنهم في الواقع مكلفون بالقيام «بعمليات سرية» وهذه العمليات لا تظهر في سجل عملهم العسكري ولا يطلع عليها أحد. وذكر لي أيضاً أن أكثر العمليات شبه العسكرية تتولاها قوات الدلتا، ولم أر طوأل خدمتي سوى شخص واحد من قوات سيل في هذه الوحدات... وفي العادة يجري تجنيد هؤلاء من وحدات الجيش ثم ينتسبون فيما بعد إلى الوكالة بصفة متعاقدين أمنيين، وينقلون إلى العمل مع الوكالة بعد تسريحهم من الجيش مباشرة، وتبدأ إجراءات توظيفهم قبل موعد تسريحهم من الجيش بوقت يكفي للاستقصاء عن خلفيتهم وأهليتهم للعمل مع الوكالة. وبعد إتمام تلك الإجراءات، يلتحقون بالوكالة دون انتظار أو تأخير. وفي العادة يتمتع الأفراد العاملون في الجيش بسجلات نظيفة، فلا مشكلات مالية، ولا قانونية... وليس هناك نقص في المتطوعين... بعض الناس يسخرون من الوكالة، غير أن أفراد القوات الخاصة يبذلون قصارى جهدهم للعمل فيها. فأنت تأخذ كل ما تحتاجه، ولا أحد يتعرض لك بالمضايقة، ولديك نظام خاص لتسلسل السلطة، ولا تخضع لسلطة القائد العسكري المحلي؛ فأنت لست ضمن النظام الفدرالي، ولا ضمن النظام العسكري.

وتابع المتعاقد قوله، إن العمل في أفغانستان هو في منتهى السهولة... تسجل اسمك، ثم تخضع لبعض التدريب، ثم تأتي بالطائرة إلى هنا. وفي العادة تسافر عن طريق الطيران التجاري إلى طشقند [في أوزبكستان المجاورة] ومن هناك تأتي إلى كابول على متن طائرة عسكرية، وعند وصولك تكون مجموعة من الجيش في استقبالك، فتذهب معهم وتبيت

في الفندق تلك الليلة، ولا أحد يوجه إليك أي سؤال... وبعد أن تمكث في المدينة يومين، تذهب إلى قائد القاعدة، وبعد أن تملأ النماذج المطلوبة، تأخذك الطائرة إلى خوست، أو غازني، أو قندهار، أو إلى أي مكان آخر.

والأجر الدارج الآن هو ألف إلى ألف ومئتين وخمسين دولاراً في اليوم. هذا فيما يخص المتعاقد الذي يجتاز المتطلبات الأمنية، وهذا الأجر هو أفضل مما يدفع في العراق، وأما المدة الاعتيادية للوظيفة فهي ثلاثة أشهر؛ لأن أكثر الأشخاص يفقدون أعصابهم إن تركتهم في هذا المكان أكثر من تسعين يوماً.

كان سائقنا ومترجمي دوك يحدقون بأبصارهم إلى الأمام لرصد وجود أي علامة على حفر جديدة في الشارع، وهذه الحفر هي الأماكن المفضلة لدى طالبان لوضع الألغام الأرضية التي تفجر عن بعد. وكنت قد أخبرتهما أن المتعاقد الأمني هو مصوّر يعمل معي، وهو يستمتع بهذا الدور السري الجديد لكونه مرافقاً لي. وكان هذا المتعاقد يستخدم جهاز تحديد المكان عن طريق الأقمار الصناعية في متابعة الطريق والتأشير على نقاط التفتيش التي يربط فيها أتباع طالبان وجنود زعماء الحرب الآخرين. وهذه النقاط ما هي إلا مطبات توضع على الطريق ويحميها رجال مسلحون لإجبار السيارات على التوقف، غير أن سائقنا لم يعبأ بهم واستمر بالسير دون توقف. حاولت أن أظهر نفسي بهيئة البشتون بقدر ما يسع إفرنجياً ذا عينين زرقاوين أن يفعل. غير أن صديقي المتعاقد بلحيته الكثيفة كان يبدو أفغانياً أكثر مني مهما اجتهدت. وعندما اجتزنا نقطة التفتيش أخفيت نظاراتي الشمسية في جيبتي، ورفعت الملاء البنية المتسخة حول كتفي، ورحت أنظر من النافذة، وحرّصت على ألا يظهر على قسمات وجهي أي مشاعر تلفت النظر. وقد مررنا بأربع من هذه النقاط بسهولة، في حين أن الشاحنات والسيارات الأخرى التي تنقل الركاب كان يطلب منها التوقف؛ لكي تخضع للتفتيش.

قال المتعاقد: إن القاعدة العسكرية الأولى التي عمل فيها هنا كانت مقامة على أبعاد نقطة يمكن أن تصلها الطائرة المروحية: «ذهبت بالطائرة بعد العتمة في مهمة ليلة لنقل

الإمدادات إلى فريق من وكالة الاستخبارات المركزية مستخدمين طائرة مروحية روسية؛ لأن الطائرات الأمريكية يسهل تمييزها واستهدافها، وخرجت قافلة عسكرية من أربع شاحنات لملاقاتهم. نزل الفريق الجديد من الطائرة، وصعد الفريق القديم مكانهم، ثم غادرت الطائرة إلى الوجهة التي أتت منها». حين شاهدت التضاريس عبر منظار الرؤية الليلية، كان كل ما خطر ببالي هو سطح القمر، غبار ناعم، حجارة وصخور، وتراب، وهضاب منخفضة تلتف لتشكّل جبلاً على كل جانب، وجميعها خضراء. لم يكن هناك شيء سوى النجوم، والصخور، وقلعة مشيدة من الطين من العصور الوسطى. وفي داخلها وجدت رجلاً ضخماً ملتجئاً يلبس قبعة غريبة، وكان يجلس يتدفأ حول برميل من الحديد أشعلت فيه نار من الديزل. وحين رأنا، ضحك ضحكة مجنونة، وكان لهيب النار ينعكس على وجهه، فصاح منادياً: «أيها الرجال، مرحباً بكم هنا على حافة الإمبراطورية!» ويا إلهي كم كان لتلك الكلمات وقع مخيف في نفسي حين سمعتها.

كانت تلك النقطة في الأصل منزلاً يملكه شخص أفغاني قبل أن ينتقل إلى يد الأمريكيين. ويمكنك مشاهدة مثل هذا المكان في مئات من الأفلام، كحرب النجوم، وماد ماكس (ماكس المجنون)، وبوجست (بادرة نبيلة)، وعشرات أفلام الكاوبوي. إنه يمثل آخر نقطة تنتهي عندها الحضارة قبل أن تصل إلى البربرية والوحشية... وقامت وكالة الاستخبارات المركزية باستئجار المنزل؛ لأنه يقع على تقاطع يشهد حركة مكثفة لاخرافات طالبان والقاعدة القادمة من باكستان. وحصلت على أول قرينة لإثبات هذه الحقيقة حين رأيت خريطة في مكتب وكيل وزارة الأمن مكتوب عليها «سري جداً» وقد أُشْرَ على الخريطة بدوائر خضراء صغيرة للدلالة على الأماكن التي يوجد فيها العدو. والمشكلة هي أن هذه الدوائر كلها كانت في باكستان مثل مدينة ميرام شاه ووانا.

حين وصلت إلى هنا، أرسلت أنا وجندي آخر لمقابلة حرس الحدود الباكستانيين. قطعنا ثلاثة أو أربعة أميال بالسيارة. ويبدو لي أنه لم يسبق لهم أن شاهدوا رجلاً أمريكياً بملايس مدنية يحملون السلاح، إذ صوبوا أسلحتهم ورشاشاتهم تجاهنا

حين اقتربنا منهم، وعاملونا بعدوانية وفضاظة، وقالوا لنا: إن ضابط الاستخبارات المسؤول سيأتي لمقابلتنا غداً، وفي اليوم اللاحق اجتمعنا جميعاً في خص وحولنا جواله من وزيرستان. قمنا بجولة أولية، ثم عدت أنا وزميلي لإحضار قائد النقطة ومعه ضابط الاستخبارات، و مترجم. أخبرهم المترجم عن طبيعة عملنا هنا، ولماذا جئنا، والمجالات التي نرغب منهم أن يتعاونوا معنا فيها - «هل يمكننا الاتصال بكم؟»، قد تلجأ إلى مطاردة أحد ما عبر الحدود، .. إلخ. وقالوا لنا: إنه ليس لديهم مشكلة في ذلك ما دمنا لا نتوغل كثيراً داخل الحدود. لم يذكروا لنا شيئاً عما سيحدث لو وصلنا إلى البلدة التي تبعد ثلاثة أميال من الحدود.

وقال لي المتعاقد: إن البحث عن ابن لادن ليس كالبحث عن صدام حسين، الذي كان يبحث عنه آلاف من الجنود تحت كل بساط وكل شجرة. وحتى الباكستانيون أنفسهم لا يمكنهم العمل في المناطق القبلية دون التعرض لردود فعل عنيفة.

وتابع المتعاقد قائلاً: «كانت مهمتنا هي هز شجرة التفاح، ... لم نكن نبحث عن ابن لادن من الأعلى، بل كانت إستراتيجيتنا تركز على صغار الأتباع - وهي الطريقة المتبعة في القبض على عصابات المخدرات في أمريكا-. ضيق الخناق على الصغار إلى درجة الإرباك؛ كي يتصلوا بالمسؤولين الأعلى منهم مرتبة. ثم نقوم برصد هذه المكالمات وتبدأ الملاحقة بعد ذلك، فتحن قتل مستأجرون - بنادق لها أرجل - ونحن هنا لتوفير الأمن لضابط الاستخبارات، والقبض على أشخاص معينين، أو القيام بعمليات دهم. ويدير القاعدة موظف من وكالة الاستخبارات المركزية، وهو لا يعيرنا أي اهتمام».

وقال المتعاقد: إن طالبان لم تكن على رأس سلم أولوياتهم. «القضية ليست الملا عمر، بل كنا نبحث عن القاعدة... كنا نتعقب عناصر القاعدة». إننا لا نحاول تطوير مصادر استخباراتية داخل المدارس الدينية، بل نبحث عن الأشخاص الذين يرتبطون بابن لادن. «نطرح أسئلة بسيطة مثل أين ينام هؤلاء في الليل؟ ومتى ما عرفنا مكان نومهم، فإنه يمكننا مراقبتهم. وحين نعثر على المنزل، فإن باستطاعتنا رصد أي وسيلة اتصال إلكترونية،

حيث نرسلها بعد التقاطها مباشرة إلى لانغلي¹، وإلى شيلتهام [المركز الرئيس لجهاز إم آي 5]²، أو واشنطن.... وبعد أن نعثر على مقرهم، فإننا لا نستعجل في توجيه ضربة إليهم، بل نتركهم يتحدثون؛ كي نرصد مكالماتهم، ونستخدم تلك المعلومات الاستخباراتية في القبض على الأشخاص في المستويات الدنيا، ويمكننا تحليل بصمات أصواتهم وتحديد هوية الشخص الذي يتحدثون إليه إذا كان صوت ذلك الشخص مخزناً في قاعدة البيانات لدى الوكالة. وإذا اتفقوا على عقد اجتماع، أو إذا حددوا مكاناً ما للالتقاء، فإن شخصاً منهم سيصاب في اليوم المقبل على وجه مؤكد. وإذا لم يتصلوا بشخص مسؤول أعلى في المنظمة، فإما أن نلقي القبض على واحد منهم، أو أن ننهي وجودهم على وجه الأرض. وإذا فعلت ذلك مرة أو مرتين، فإن من شأن ذلك أن يلقي الذعر في نفوس الباقين».

لاحظت في أثناء الحديث أن دوك المترجم الذي يرافقنا كان يستمع إلى الحديث باهتمام، ثم قام المتعاقد بتعديل قبعته الأفغانية الصوفية ذات اللون البني وهو ينظر في مرآة السيارة، وكان معجباً بمظهره الأفغاني، قبل أن يتابع حديثه:

المشكلة هي أننا نقوم بهذا كله داخل الحدود الباكستانية... ولهذا السبب برزت الحاجة إلى المتعاقد الأمني الخاص؛ لأن الحكومة يمكنها أن تقول: «نحن» لا نعمل في الأراضي الباكستانية. ولكن كن على يقين مطلق أن الفتية البيض يدخلون باكستان كل يوم ويطلقون النار على الأعداء».

«قائد النقطة العسكرية هو الشخص المسؤول، وضابط الاستخبارات منهمك في عمله في الداخل، ولم أشاهد ضابط الاستخبارات طوال الشهر الذي أمضيته في تلك القاعدة سوى مرة واحدة. إن هذه القاعدة هي عملية تنفيذها وكالة الاستخبارات المركزية ولكن

1- مقر مركز قيادة سلاح الجو الأمريكي.

2- جهاز الاستخبارات البريطاني المسؤول عن الاستخبارات الداخلية والنشاطات الاستخباراتية المضادة في الأراضي البريطانية، والعبارة هي اختصار مكون من الأحرف الأولى من عبارة الاستخبارات العسكرية الدائرة 5. وهناك أيضاً الدائرة 6 (إم آي 6) المسؤولة عن الاستخبارات الخارجية. والتسمية الرسمية الجديدة لهذين الجهازين أصبح خدمات الاستخبارات السرية واختصاراً إس آي إس.

جرى وضع عدد من الجنود في الخارج لإظهارها بمظهر القاعدة العسكرية، والوكالة هي التي استأجرت الأرض التي أقيمت عليها القاعدة، ويقوم الجيش بتنفيذ عملياته الخاصة به، ولكنهم يفعلون ذلك بعد إخبار قائد القاعدة بما سيفعلونه، وأمّا وكالة الاستخبارات المركزية فلا تزال تعمل ضمن الأقسام الخاصة بكل دولة؛ فإذا أردت أن تذهب إلى باكستان، فعليك أن تتصل بقائد الوحدة المسؤول عن نشاط الوكالة في إسلام آباد، ولا يمكنه طبعاً أن يعرقل المشروع».

يقضي المتعاقدون أكثر أوقات فراغهم في الجري بين مدرج هبوط الطائرات المروحية والقاعدة.

«إننا نحب المحافظة على لياقتنا البدنية، وحين تكون في المعركة، عليك أن تستخدم كل ما لديك من قوة، وعليك أن تأخذ معك بعض الأشخاص، وإن كنت صفر اليدين. بعضنا يتعاطى منشطات الستيرويد. وأمّا حبوب دي بولز فتساعد على زيادة حجم العضلات، كما تساعد حبوب سستانون في الحفاظ على الزيادة التي اكتسبتها، ولا يعترض أطباء الجيش على ما نفعل. وحين ترى شخصاً ضخماً الجثة، فتوقع أنه يتعاطى هذه الحبوب. غير أننا نستخدمها ضمن الضوابط».

ثم نظر المتعاقد إلى التضاريس القاحلة وإلى القلاع الشاهقة المبنية من الطوب حولنا. وحول بندقيته، وابتسم. في هذه الأيام، تسعى الوكالة إلى تجنيد المورمان، والعائدين إلى الدين المسيحي من جديد. إنهم يبحثون عن الأشخاص الذين يتمتعون بحس وطني قوي وبنزعة نحو عمل الخير. على الأقل كانت البداية كذلك.... فأنا لا أشرب الخمر، ولا أدخن، ولا أكل من كل ما هب ودب، وأردف المتعاقد قائلاً، وهو يبتسم: لكن نقطة ضعفي الوحيدة هي البيبسي والنساء.

ومع وصولنا إلى نهاية مؤخرة سلسلة الجبال التي تسيطر عليها طالبان، شاهدت خارج المنزل فرن غاز مألوفاً لدي، وهو العلامة التي أعرف بها منزل حجي، وظهر لي أن المتعاقد كان سعيداً بتسجيل علامات الطريق ونقاط التفتيش على جهاز تحديد المكان

الذي كان بيده. يسكن حجي في واحد من أكبر المنازل في منطقة غارديز، وهذا بذاته دلالة على أهميته ومكانته الاجتماعية، وتمتد الجدران المحيطة بمنزله إلى أكثر من 275 متراً طولاً وبارتفاع 9 أمتار. وقد أقيم المنزل على سهل فسيح خارج حدود المدينة على مقربة من القاعدة الأمريكية في غارديز، وخلفه الجبال التي تسيطر عليها طالبان. وإلى الجنوب بين الجبال يقع وادي شاهيكوت الفظيع الذي كان مسرحاً لعملية أناكندة في آذار/ مارس من عام 2002، وإلى الخلف منها يقع جبل هوارخيلي الذي يضم الملجأ الضخم الذي شيده ابن لادن للوقاية من القصف السوفييتي، وتمتد حقول الأفيون إلى الشمال والشرق. وفي داخل المنزل، أقام حجي بيتاً خاصاً للضيافة، ومنطقتين أخريين مسوّرتين، واحدة لأسرته، والأخرى لزراعة المحاصيل. وقد شيّد هذا المنزل ليوفر أقصى درجات الدفاع، فجعل في كل زاوية من زوايا السور برج حماية مربع الشكل، وفي كل قسم من هذه الأبراج ما يكفي من الأسلحة والذخيرة، وحتى المرحاض الخارجي يوجد على سطحه ثلاث منصات للبنادق الرشاشة، وكان على كل برج من الأبراج المحيطة بالمجمع مدفع مضاد للطائرات، غير أن حجي أزالها خوفاً من التعرض لقصف الأمريكيين. ولا تتوقف حركة طائرات أباتشي، وبلاكهوك، وتشينوك، وقاذفات القنابل بي - 1 بي، والطائرات المقاتلة النفاثة في السماء فوق منزل حاجي من الصباح حتى ساعات متأخرة من الليل.

استقبلني حجي بمعانقة كمعانقة الدب وبقبلتين كأنني ابن له هجرته ثم عدت إليه نادماً، ولاحظ حجي على الفور أن صديقي هو أكثر من مجرد مصوّر. فبالإضافة إلى حملته بندقية كلاشكوف، ولبسه نظارات أولكي الشمسية، أبدى المتعاقد عاداته اللافتة للنظر في التقدم والتأخر مسافة 20 متراً وكأنه يقوم بعملية تمشيط أمني، وكان يتفحص ببصره كل غرفة وكأنه يبحث عن عناصر معادية. ولكن لما كان المتعاقد صديقاً لي، فقد لقي الترحاب من دون سؤال.

منذ أن وصلت إلى منزل حجي قبل يومين، جرت العادة على تقديم ثلاث وجبات طعام في اليوم على بساط يوضع على الأرض، ويتبعها عدد غير متناه من أكواب الشاي،

وساعات من الحديث عن طريق المترجم. وهذا كل ما كنا نفعله منذ وصولي إلى هذا المكان. ومع أن حجي احتاج إلى بعض الوقت قبل أن يبدي ارتياحاً تجاهي، إلا أنه في النهاية أعرب عن رأيه بصراحة تجاه الوضع القائم في أفغانستان.

انصب حديثنا في الليلة الأولى على قضايا عادية وصغيرة، وكان حجي يتخذ موقفاً محايداً. نعم، كان يدعم الأمريكيين، مع أنه يبدو غاضباً من جرّاء ما فعلوه عام 2001. وهو يعتقد أن طالبان قد انتهت. وفي الليلة اللاحقة، ناقشنا بعض القضايا المحددة. لا توجد حكومة هنا، بل عنف، ومدرسة واحدة دون معلمين. وبحلول الليلة الثالثة، وبعد أن رفعت مائدة العشاء، وقدم الشاي الأخضر، أصبح حجي أكثر صراحة في التعبير عن آرائه. سألته عن صحة التقارير التي تتحدث عن عودة طالبان.

«نعم، إنهم يأتون إلى هنا... وعادة ما يكون ذلك في الليل، ويطلبون الطعام والمأوى، ولا يمكنهم طويلاً، ونحن لا نسألهم عن وجهتهم التي يقصدونها. وفي بعض الأحيان يخيفون الناس، وفي بعض الأحيان يدفعون ثمن ما يأخذونه، لكن يبدو أنهم يعرفون إلى من يتحدثون. وفي كل مجموعة مكونة من عشرين من عناصر طالبان، هناك أربعة أو خمسة من العرب. وهؤلاء بحاجة إلى أن يكونوا مع الأفغان؛ لأنهم لا يعرفون المنطقة ولا يتحدثون اللغة المحلية».

يتمتع حجي بمركز اجتماعي يخوله إبداء رأيه في طالبان، غير أنه يرى ضرورة الحذر حين مناقشة مسألة العرب. وهم الذين تطلق عليهم الولايات المتحدة وصف القاعدة: «إن الناس هنا لا يحبون العرب؛ لأن العرب متعجرفون ويتصرفون وكأنهم أفضل من الأفغان وأعلى منهم درجة». ثم ضحك وقال: «اعتاد الناس هنا القول: إن العرب أحرص على تصوير أفلام الفيديو من حرصهم على القتال».

واضح أن القاعدة لا تزال موجودة هنا، وأنها ترهب الناس. وحين اجتمعت بشيوخ قبائل المنطقة قبل حلولي ضيفاً على حجي، طلبت أن أمكث مع زعيم قبلي آخر يسيطر على منطقة حدودية، فرد الرجل المسن ذو اللحية البيضاء الطويلة بقوله، «على الرحب

والسعة، لكن العرب سيتركون رسالة على الباب تقول: إذا لم تغادر في اليوم القادم، تقتل أنت أسرتك»، فشكرته على عرضه استضافتي، وقبلت دعوة حجي بدلاً من ذلك.

أخبرني حجي أنه: «في عهد الجهاد ضد الروس، كنت تجد أناساً في كل قرية ينشطون لطهو الطعام لنا وتقديم المساعدة... لم يقلق أحد من الخيانة، أو من انكشاف أمره، ولم يكن هناك حرس على الأبواب. أما الآن فنجد أن هؤلاء الأشخاص أنفسهم يتأهبون الخوف حين يشاهدون العرب أو أتباع طالبان، وأصبح لزاماً على العرب الآن أن يستخدموا هواتف نقاله تعمل عن طريق الأقمار الصناعية في اتصالاتهم، وأن يتسللوا إلى القرى في الثالثة صباحاً، ويرحلوا قبل بزوغ فجر اليوم الثاني».

(...) وحين سألته عن الملا عمر، رد علي حجي فوراً: «كان الملا عمر في ميرام شاه في أثناء شهر رمضان، وانتقل الآن إلى كويتا لقضاء فصل الشتاء هناك». وكلام حجي في هذه المرة يطابق الحقيقة. ولم يذكر لي من أين حصل على هذه المعلومات، ولكن توقعاته جاءت مطابقة للتصريحات التي صدرت عن الرئيس الباكستاني برويز مشرف والرئيس الأفغاني حامد كرازي حول رؤية شهود عيان الملا عمر وبعض قادة طالبان في الصلاة في كويتا.

ومع أن حجي عمل في صفوف طالبان، فإن لديه مشاعر مختلطة حول حكمهم لأفغانستان: فهو يقول: «التقيت الملا عمر وغيره من قادة طالبان مرات عديدة، وهم ليسوا بالأشخاص المثقفين، ولا حتى بالمسلمين الورعين. لقد أخذت طالبان كل المومسات إلى قندهار، وكان العرب يعاشرونهن. وفي ذلك الوقت، كانوا يرون أنفسهم طبقة منفصلة عن بقية الناس، وكان جندي المشاة في صفوفهم أفضل وأوثق من زعيم قبيلة». ثم يوضح حجي كلامه: «هناك فصيلان من طالبان: فصيل الجهاديين الذين يسعون إلى الشهادة، وهناك الذين يقاتلون من أجل المال».

(...) ويتبأ حجي بمستقبل سوداوي مماثل للأمريكيين: «أضمن لك أن الأمريكيين لن ينجحوا في أفغانستان؛ لأنهم يعتمدون على الأشخاص الذين يدفعون المال، وهم الآن

محاطون بأشخاص يطمعون في الحصول على المال، لقد ابتعدوا عن زعماء القبائل، وأقاموا علاقات صداقة سيئة».

لم يفصح حجي عن ميوله الشخصية تجاه هذا الطرف أو ذلك، ولكنه رد بمرارة ظهرت في نبرة صوته: «إنني أحاول أن أنأى بنفسني عن هذه الأمور». ومع أن من الراجح أن له ميولاً شخصية غير معلنة، إلا أن من الواضح أن أياً من الطرفين لا يحظى بدعمه الكامل. وربما كان ذلك بسبب أن كلا الطرفين [أمريكة وطالبان] ينظران إليه بوصفه زعيماً قبلياً ليس له وزن في النظام الجديد.

ازدادت محبتي لحجي بعد احتكاكي به، إذ كان يعاملني معاملة الأب لابنه، وكان يصرّ على أن أجلس عن يمينه، وكان يقدم لي أفضل قطعة لحم في القصعة، ولم يكن الطعام يرفع عن البساط البلاستيكي إلا بعد أن آكل وفق رغبته، وكان يحرص على أن أجلس في أدفأ مكان في الغرفة، وكان يلحّ عليّ أن أعفيّ لحيتي، وكان يربت على خدي كل يوم، كأن ذلك سيسارع في نموها. كان كرم حجي الزائد هو الذي دفعني إلى دعوة صديقي المتعاقد الأمني لزيارة المنزل، غير أن الخرق الذي صدر عن المتعاقد في تلك الزيارة، قد وضع ذلك الكرم على المحك.

في أثناء تناولنا طعام العشاء في الليلة التي وصلنا فيها إلى المنزل، أراد حجي أن يعرف كل شيء عن رحلتي، وكان يدفع بالطعام أمام المتعاقد، قطعاً منتقاة من لحم الضأن المطبوخ بالزيت مع خبز طازج، بالإضافة إلى طبق صنّعه زوج حجي -خصيصاً للضيف - وهو طبق من اللبن الخاثر مسكوب عليه زيت. أبقى الضيف الجديد يديه مكتوفتين وكان يتمتم، «عليّ أن أحافظ على نسبة 10% من الدهن في الجسم»، وقام حجي بعدة محاولات لإقناع الضيف بالأكل قبل أن ييأس منه، وكان يحدق به ثم ينظر إليّ مكسور الخاطر، فقلت للمتعاقد: «تظاهر بأنك تأكل شيئاً، وامتدح الطعام»، ولكنه كان يقف من حين لآخر في أثناء تناول العشاء مستأذناً بأنه يريد أن يصوّر بعض أفلام الفيديو. وحين خرج من الغرفة، نظر إليّ حجي وسألني عن طريق المترجم: «ما شأن صديقك؟».

وكان هذا المشهد يتكرر في طعام الفطور، والغداء، والعشاء على مدى ثلاثة أيام. وكان يشاركنا اثنان من أبناء حجي، ولفيف من السكان المحليين الذين يأتون إلى منزل حجي طالبين منه إسداء معروف لهم. وجاء أخو حجي يرافقه حفيده البالغ من العمر ثلاث سنوات، وطلب إلي أن أصلح له هاتفه الذي يعمل عن طريق الأقمار الصناعية، وهو هاتف لا يزال بالإمكان استخدامه لإجراء مكالمات مجانية على حساب وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية. وكان المتعاقد يلتزم الصمت طول الوقت، ويتابع الحديث باهتمام، لكنه على ما يبدو لا يجيد التفاعل مع الأفغان من غير العملاء والمخبرين. استمر المتعاقد على إصراره في رفض الأكل ولو كان ذلك حفنة من الرز، وأصبحت أخشى نظرة التعجب التي ترتسم على وجه حجي حين ينظر إلي بعد رفض صديقي الأكل. وكان حجي يذهب إلى السوق بنفسه لشراء ما يناسبنا لتحضير الطعام، ويعتذر عن عدم تقديم البيض مع الفطور؛ لأن الدجاج لا يضع البيض في مثل هذا الجو البارد. وكان المتعاقد يقيم أودّة على قطع مستطيلة من الشوكولاته من نوع أتكينز، وعلى رشقات من المياه المعدنية من عبوة بلاستيكية كان يبقئها في حقيبتة، وكان يفعل ذلك في الصباح وقبل النوم.

رحّب حجي بالمتعاقد، ولكن المشاعر اختلفت عما كانت عليه حين حلّت عليه ضيفاً وحدي!! لقد تحولت ضيافته إلى ضيافة رسميّة، مصممة لقيام حجي بمسؤولياته؛ لكي يوصل رسالته إلى شخص هو في نظر أكثر الأفغان من الأعداء. أصرّ حجي على أن يصل رأيه بالهجوم الذي وقع منذ وقت قريب إلى أعلى مستويات القيادة في الحصون الأمريكية. وأخيراً، وفي اليوم الثالث بحضور المتعاقد، خرق حجي البروتوكولات البشتونية، وراح يتحدث بصراحة أمام ضيوفه الأمريكيين الغامضين عن مشاعر الإحباط لدى زعماء القبائل تجاه الأمريكيين. لقد وصلت إليه أخبار عن موت أسرة مكونة من ثمانية أشخاص في قرية قريبة تدعى سيد كرم. ولم يوضح لنا حجي كيف وصلت التفاصيل بهذه السرعة.

قال لنا حجي: «كان يعيش سفاك في تلك القرية ثمانية عشر عاماً وكان يهدد بقصف الاجتماع الذي يعقد في كابول، اتصل أحد المخبرين بالأمريكيين ودلّهم

على مكانه، لكن قبل مجيء الأمريكيين بوقت طويل كان هذا المجرم قد لاذ بالفرار. وحصل أن كان في المنزل الذي قصفه الأمريكيين رجل آخر اختبأ هو وأسرته فيه بعد أن قتل رجلاً آخر إثر شجار على قطعة أرض. فوجد ذلك الرجل وزوجه وأولاده الستة متفحمين تحت الأنقاض».

وقال حجي: إن الناس في القرية مستاوون؛ ليس من المصير الذي لحق بالقاتل؛ لأن ما حل به كان نوعاً عجيباً من أنواع العدالة؛ بل من مَقْتَل زوجته وأولاده الأبرياء الذين ليس بينهم وبين الأمريكيين ولا سكان القرية شجار.

«لقد كان بالإمكان إلقاء القبض على الرجل السفاح باستخدام أدنى قدر من الوسائل العنيفة، ولكن الأمريكيين اختاروا مهاجمة المنزل بطائرات وأسلحة مصممة لتدمير الدبابات».

إن ما يحدث واضح تماماً في ذهن حجي: «المخبرون والجواسيس يجنون المال من الطرفين». قال المتعاقد: إنه يفهم ذلك، وانتهت وجبة الطعام بصمت.

بعد تناول طعام الإفطار، شكرت حجي على حسن كرمه وضيافته، وتحدث إلي كالدجاجة التي ترعى صفارها، يوجهني للاستعجال وعدم العبث بالكاميرا التي أحملها. ومع بزوغ ضوء النهار، استعجلنا حجي في ركوب السيارة والانطلاق قبل أن يرانا أحد في منزله. وكان يثق بحكم السكان المحليين الذين زاروه في أثناء وجودنا في الأيام القليلة الماضية، ولكن إذا ذاع الخبر بأن أشخاصاً أمريكيين غير معروفين مكثوا في منزله أياماً، فإن عيون الشر ربما تحيط بمنزله. وفي الأفق كانت مراوح طائرة بلاكوهوك تشق طريقها عبر هواء الصباح البارد.

وفي طريق عودتنا باتجاه الحدود، أراد المتعاقد أن يقف عند إحدى القواعد العسكرية ليتحدث إلى شخص من الوكالات الحكومية الأخرى، وهذا الوصف (الوكالات الحكومية الأخرى) هو عبارة عن مسمى آخر لوصف كبار القائمين على العمليات السرية التي

لا تتدرج ضمن الهيكل العسكري التقليدي. وكان المتعاقد يبدو متحفظاً لنقل احتجاج حجي حول إفراط الأمريكيين في استخدام القوة، واعتمادهم على المعلومات القادمة من الجواسيس والمخبرين؛ وجلست أنا أنتظر في الخارج.

وبعد دقائق معدودة، ظهر المتعاقد وهو يهز رأسه: «يبدو أن الضابط المسؤول لم يكلف نفسه مشقة القيام من سريره ليقول مرحباً. واكتفى بإرسال المراسل المحلي ليقول لي: إنه يعلم بهذه المعلومات.»

أراني المتعاقد رزمة من الروبيات الباكستانية القذرة، وقال وهو يهز رأسه متعجباً، «قال لي الحقيير شكراً وهذه بعض الروبيات لدفع أجرة التاكسي... تقضي السياسة المتبعة بدفع شيء ما لكل شخص يأتي بمعلومات استخبارية.»

ثم تأمل الروبيات المتسخة، وهز رأسه ثانية، وقال وهو يدخل السيارة: «هذه مفسدة كبيرة. فأني حافز أفضل لتقديم معلومات كاذبة إلى الأمريكيين من أن تأخذ عليها مكافأة من المال؟»

وحتى نكون منصفين، فإن فكرة أن يدخل مدني أمريكي مسلح مشياً على قدميه إلى قاعدة عسكرية ومعه معلومات معينة ربما تجعل من أي موظف رسمي يترئث قبل أن يفعل أي شيء بها، ذلك أن الجيش لا يستقي معلوماته إلا من مصادر استخبارية مؤسسية. وتعد المعلومات التي يتقدم بها أشخاص عابرون من أضعف المعلومات الاستخبارية، ولكن من الواضح أن ما أزعج المتعاقد هو أنه تلقى رزمة من الروبيات الملوثة.

وقال المتعاقد: إن الاعتماد على المعلومات الاستخبارية غير الصحيحة وغياب التعامل مع السكان المحليين، قد ضاعف من المشكلات الأمنية، وأضاف، «حين تدهم مدرسة -أي المدارس الدينية- فإن السكان المحليين يغضبون. ولا تجد فيها دوماً أشخاصاً أشراراً، ولكن الجميع يطرحون على الأرض، وتوضع القيود في أيديهم وأرجلهم، وتغطي رؤوسهم، ويوسمون. وحين تنسى أن تعطي كل واحد منهم مئة دولار قبل أن تخرج من الباب، فإنهم سيقطعون على أنفسهم عهداً بالتأثر منك على ما فعلت، وسوف يفعلون

ذلك. وفي المرة القادمة حين يأتي الأمريكيون بدورية في سيارات الدمبفي¹، فسيكون الفخ جاهزاً لهم».

ويذكرني هذا الكلام بالمثل البشتوني الذي سمعته من حجي قبل أيام: «إذا أخذت بشارك بعد مئة عام، فأنت مستعجل».

وعلى الرغم من المعاملة التي لقيها المتعاقد من موظف الوكالات الحكومية الأخرى، فإنه يصر على أن الأشخاص الذين يعمل معهم مباشرة قد بدؤوا بإدراك القضية وأخذوا يطورون أساليبهم في جمع المعلومات. إننا نريد الآن أن ندخل إلى عقول الناس الذين نتعامل معهم. نريد تأسيس علاقات لطيفة، أكثر ارتباطاً بالعلاقة الشخصية، بدلاً من أن تكون مؤسسة على الحافز المالي.

ويضيف المتعاقد، «في السابق، قال رمسفيلد: إننا ربما نصنع من الأعداء أكثر مما نقتل... يا للغباوة.... ولكن الأمور الآن تتغير. إننا لا نتعامل كثيراً مع القادة المحليين الأفغان. ولا نلقي بالألما يقوله الباكستانيون؛ لذلك تجد أنه يسمح لنا بالتوغل داخل باكستان... والسبب أو لآخر، لا تزال باكستان كالكنيسة الكاثوليكية، حيث يلجأ إليها بوصفها حراماً آمناً». وأضاف، «إن الأشخاص المخربين في داخل باكستان يستخدمون الحماية الباكستانية لضرب الأمريكيين داخل أفغانستان ثم يفرون عائدين إلى باكستان؛ لأنهم يعلمون أنهم لن يلاحقوا داخل باكستان. وأمل أن يتغير هذا الوضع».

إن العمليات السرية مستمرة في الوقت الراهن، وتلجأ قوة المهمات الخاصة إلى البحث عن أسباب لعبور الحدود، كما يقول المتعاقد. قد يحتاج مدني أمريكي يعمل في باكستان إلى المساعدة، وهو ما يعطي الجيش الأمريكي سبباً لعبور الحدود لتقديم الدعم، أو في

1- المقصود هنا سيارات الجيب رباعية الدفع التي دخلت من عهد قريب الخدمة في الجيش الأمريكي ماركة همفي، وهذا الاسم هو اختصار محور من عبارة (عربة مرنة الحركة متعددة الأغراض) ولكن المتحدث استبدل بالمقطع الأول من الكلمة (hum) كلمة (dumb) التي تشابهها في الوزن وتعني «الغبّي» للدلالة على قصور تلك العربات وعدم نفعها ولا سيما في مواجهة الأنغام الأرضية والعبوات الناسفة التي تفجر من بعد.

حالة المطاردة الساخنة، أو لاستدعاء نيران المدفعية، أو الدعم الجوي لملاحقة «الأشخاص الأشرار» الغامضين. ولكن إلى أن يفعلوا ذلك، فإن الحرب الخفية تعتمد على رجال، كالأشخاص المتعاقدين، لديهم عزيمة في العمل والقتال في أماكن نائية، بعيدة عن مدى القوة العسكرية الأمريكية. سألته هل كان هناك خطط لإنقاذهم داخل الحدود الباكستانية إذا فشلت مهمتهم وتعرضوا للخطر؟ فقال: «خطة الإنقاذ هي، إذا عبرت الحدود إلى باكستان، فسيكون حبلك على غاربك، ولن تأتيك طائرة لاننشالك، فأنت في الهلكة إذا وقع منك خطأ ما». غير أن تلك العرضة للمخاطر هي عنصر جوهرية في عالم المتعاقد الأمني. ويضيف المتعاقد: «فأنت لست ضمن الهيكل الفدرالي ولا ضمن الهيكل العسكري... إنك شخص يمكن إنكار الصلة به، ويمكن التخلص منه بسهولة، ويمكن محوّه».

إن هذه الاستقلالية - وما يلازمها من سرية - هي جزء من دستور المتعاقد الأمني. وهذا الدستور يجب أن يبقى مصاناً حتى بعد الموت من وجهة نظر المتعاقد الأمني. ويقول المتعاقد: «حين يلقى أحداً حتفه، فإن ذلك بسبب خطأ ارتكبناه... لقد فقدنا اثنين من الرفاق في كمين نصب لهما، وفقدنا ضابط استخبارات في أثناء التدريب. هذا إلى جانب قضية [جونى ميتشيل] سبان الذي قتل في أثناء الاستجواب، مما يجعل مجموع عملاء وكالة الاستخبارات المركزية الذي لقوا حتفهم في هذه الحرب أربعة». وقد جرت عادة وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية على عدم كشف هوية العملاء الذين يعملون فيها وإن قتلوا. ولكن في قضية سبان، قررت الوكالة أن نجوميته المغفلة يجب أن توضع على جدار الشرف في وقت كانت الوكالة أحوج ما تكون فيه إلى بطل علني يشار إليه بالبنان. «وقد اتخذ ذلك القرار بعد 11 أيلول/ سبتمبر بغية تلميع صورة الوكالة. إنه لا ينبغي الإساءة إلى بطل ميت بهذه الطريقة، لهذا السبب أعتقد أن الرجل الثاني في وكالة الاستخبارات المركزية قرر أن ينتزع بعض المجد ليغطي به سجل الأخطاء التي ارتكبتها الوكالة منذ حادثة خليج الخنازير¹.... لقد تعرض جورج تينيت لنقد شديد بسبب 11

1- خليج على الشواطئ الكوبية، وهو المكان الذي شهد محاولة فاشلة لاجتياح الجزيرة من قبل مجموعة كويبية معارضة في المنفى عام 1961، بمعرفة وتدير من وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية.

سبتمبر، وكان يسعى إلى إثبات أن الوكالة ما زالت ناجحة، وأنها تعمل بجهد واجتهاد. والمشكلة هي أن ما فعلته الوكالة سيؤدي بقية الأشخاص الذين يقومون بعمليات سرية للوكالة، وسيؤدي أسرهم؛ لأنه سيرك أزواجهم وأسرههم مكشوفين في العراق، إضافة إلى أنه يكشف عن إجراءات ومبادئ العمليات السرية والتجسس التي تقوم بها الوكالة... ولست أدري لماذا يضحون بنا من أجل تحسين سمعة وصورة الوكالة؟».

كان من شأن الإفصاح عن اسم جون سبان أن جعل منه بطلاً، ولكنه أيضاً كشف عن هوية زوجة التي كانت هي الأخرى تعمل سراً مع الوكالة؛ وبذلك أصبح معلوماً لدى الناس أن أبناءهما هم أبناء موظفين سرّيين في وكالة الاستخبارات المركزية. وحين تأملت ما قاله المتعاقد، فهمت أنه رأى في هذا الاحتفال العلني بالمهارة الخاصة لعمله السري انتهاكاً للدستور الذي يحكم عمله. ويبدو لي أن رغبة المتعاقد في التحدث إلي حول هذا الموضوع، نابعة من شعوره بالغضب المتولد من رؤيته انهيار مبدأ السرية. لقد قام المتعاقد الأمني المستقل الذي يعمل معه في العالم السري لمهمات الوكالات الحكومية الأخرى بالقبول بالوظيفة التي كُلف بها؛ لأنه كان يثق بأن هويته وما يقوم به من مكاييد ستبقى طيّ الكتمان، إن لم يكن ذلك حماية له، فعلى الأقل حماية لأسرته وأبنائه من بعده. ولكن يبدو الآن أن وكالة الاستخبارات المركزية مستعدة للتضحية بذلك العهد الذي قطعته على نفسها أمام عملائها، بغية تحقيق بعض المجد.

طلب إليّ المتعاقد أن ينزل قبل قاعدته بمسافة قصيرة؛ لكي يوفر على نفسه مشقة تفسير وجوده في منطقة تابعة لسيطرة طالبان، فودعته بالقرب من الحصن المبني من الطين على حافة الإمبراطورية ثم تابعت مسيري في سيارة الأجرة الصغيرة.

